بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتب الله لك السعاده وأمدك منه بالحسنى وزياده ، وجنبك أسباب الشقاء ، وكفاك مكايد الأعداء ، وأرشدك إلى ما فيه الخير ، ومهد لك سبل الاحسان والبر ، وملأ قلبك باليقين ، وحال بينك و بين الضالين والمعاندين ؛ وجعل الحق شعارك ، والصدق دثارك ، وباعد بينك و بين الخطل ، وأقالك من مهاوى الزلل ، حتى لاتنطق إلا بالصواب ، ولا تصدر إلا بالحكمة وفصل الخطاب . كان لنا منذ عهد الطلب ولع شديد بكتاب « البيان والتبيين » ، وكنا لانعرف من أمر الجاحظ إلا أنه من العلماء الذين يُنْدَبُ الترضى عنهم والترحم عليهم . فلما أتيح لنا الإطلاع على ما ترجم له من سيرة انفتح لنا خَصَاصٌ من النور كان على ضئولته مغرياً لنا بالاستزادة منه . فطلبناه فى مظانه من كتب السير وأسفار الأخبار ودواوين التاريخ ، فكنا كلما أمعنا فى التتبع استنار لنا الطريق ، واتسعت الرغبة ، وما كنا نعثر من ذلك إلا على النبذة تتلوها النبذة ، لاتُبرد غُلة ، ولا تشفى علة ، ولا تنقع بلة . غير أنى كنت أجمع من ذلك ما تفرق ، وأولف بين حزائق ما تمزق ، وأضم الإلف إلى إلْفه ، والشِّبه إلى شِبهه ، إلى أن صار لدىّ من أحوال أبى عثمان الجاحظ وأخباره الشىء الكثير . فلما كانت سنة ١٩٢٦ وقام فى نفسى أن أضع على كتاب « البيان

والتبيين » تعليقات وحواشي تبين بعض غوامضه ، وأخذت فى تصحيحه وضبطه لنشره بالطبع ، رأيت أن أصدره بخلاصة فى ترجمة الجاحظ ، ولكن المقام لم يكن إذ ذاك مقام بسط وإيضاح ، فجاءت على غير مايجب من حق الجاحظ ، أو ما يشبع نهمة الأديب الفائق ، ويملأ نفس الأريب الحاذق ، وإن كانت فوق كفاية المتأدب الشادى . ألممت فيها إلماماً ، ولم استقص فيها استقصاء .

ولما انتهيت من كتاب البيان والتبيين ، وظهر بالطبع فى ذلك الحين إتسع أمامى المجال ، وعثرت على مواد جديدة لم تكن فى متناول يدى من قبل : فرأيت حقاً علىّ — وللجاحظ عندى حقوق — أن أفرد له كتاباً خاصاً أبسط القول فيه، وأتناول كل ناحية من نواحيه ، وأبين ماله وما عليه وأوضح مسائله ، وأحل مشاكله ، وأدفع عنه غوائل خصومه ، وأُحِقّ من قولهم فيه الحق وأبطل الباطل ، وأفصل منهجه فى الأدب ، كما أعرف مذهبه فى الاعتزال ، ومسلكه فى العلم والفلسفة، وأطلق القلم فى وصف خصائصه ومميزاته ، ولا أزال أتتبع حياته حتى النهاية .

على أنه لم يقف بى الأمر من ذلك عند هذا الحد ، بل رأيت اختيار طائفة ممتازة من رسائله ومقالاته ، وآرائه ومروياته ، المنبثة فى مؤلفاته المنشورة بالطبع ، أو فى مصنفات غيره مما هو من شأنه ومما يدور حوله ، فأثبتها فصلا قائماً برأسه فى نهاية هذا الكتاب حتى لا أترك لباحث أمنية ، ولا لأديب بغية ، ولا لأريب مطلباً ، ولا لمنقب مأرباً ، إلا جئت من ذلك بالقدر الذى سمح به الوقت وواتت به الحال .

وكان من حسن معونة الله وجميل رعايته ، أن وفقنى إلى العثور على طائفة صالحة من آثاره التى لم يسبق لها عهد بالنشر والذيوع بالطبع ، فأعملت فيها العقل والقلم ، مصححاً فاسدها ، مقوما معوجها ، محرراً ما شاع فيها من تصحيف النساخ ، وتحريف المساخ .

ولم أر الاستئثار بهذه الآثار ، أو الضن بها على أهل الأدب فى الأمصار ، بل آثرت ، خدمة للعلم والأدب ، أن أذيل هذا الكتاب بما رأيته صالحاً منها .

وفوق هذا فلم أترك علما من الأعلام التى ورد لها ذكر فى هذا الكتاب إلا عرفت به ، مترجماً إياه على مقتضى المقام ، متحرياً ما استطعت تاريخ ميلاده ، مثبتاً وقت وفاته . وناهيك بذلك كله من عمل شاق ، وجهد ممض . وقد أسميته « أدب الجاحظ » ليجمع بين المعنيين : معنى الاسلوب الذى تثقف به ، ومعنى الثقافة التى اختص بها واستقل بأعبائها

والله أسأل دوام التوفيق إلى كل عمل صالح وصنيع مفيد ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

حسن السندوبى

القاهرة فى { ٤ صفر ١٣٥٠ هـ
٢٠ يونيه ١٩٣١ م